المدخل النقدي لإعادة بناء الفكر الإسلامي عند العلّامة محمد إقبال

بدران مسعود بن لحسن*

الملخص

يؤكّد العلّامة محمد إقبال أن صحوتنا الحضارية تنطلق من تقييم ذاتي لمدارس الفكر الإسلامي وتياراته عبر التاريخ لندرك الإخفاقات التي وقع فيها والإنجازات التي حققها، كما يتطلب التمحيص بروح مستقلة لنتائج الفكر الأوروبي، والكشف عن المدى الذي تستطيع به النتائج، التي وصلت إليها أوروبا، في أن تعيننا في إعادة النظر في فكرنا الإسلامي وبنائه من جديد إذا لزم الأمر.

تهدف هذه الورقة إلى تحديد قواعد هذا المدخل النقدي للتراث الفكري الاسلامي وللحضارة الغربية التي نجدها مبثوثة في كتاب إقبال (تجديد التفكير الديني في الإسلام)، وذلك بتحليل هذا الكتاب، وبعض كتبه الأخرى التي بثّ فيها بعض أصوله النقدية للفكر الإسلامي والفكر الغربي، للوصول إلى تحديد أهم الانتقادات التي انتقد بها مدارس التراث الفكري الإسلامي وكذلك الفكر الغربي، وأهمّ المفاهيم التي وضعها نتيجة لمدخله النقدي.

الكلمات المفتاحية: النقد، التشخيص، التمحيص، الفكر الإسلامي، مادية الغرب، إعادة البناء، روح غربية

Critical Approach to the Renewal of Islamic Thought of Muhammad Iqbal

Abstract

Muhammad Iqbal confirms that our cultural awakening should be derived from schools of Islamic thought self–assessment and its development throughout history in order to recognize its failures and achievements. Further, it requires scrutiny in an independent spirit of European thought results and show the extent that these results would help us to re-examine our Islamic thought and to build it again when and where it is necessary.

This paper aims to identify the foundations of this critical approach of Islamic intellectual heritage and west civilization that we find in Iqbal book: "Reconstruction of Islamic Religious Thought". The paper will analyze this book, as well as some of his other writings which have elements of his criticism of Islamic and Western thought to identify Iqbal most important principles of his approach of criticism.

Key Words: Criticism, Diagnosis, Islamic thought, West materialism, Reconstruction, Western spirit.

---

* دكتوراه في دراسات الحضارة والفلسفة من جامعة بوترا بماليزيا، أستاذ مشارك في برنامج مقارنة الأديان/ جامعة حمد بن خليفة، البريد الإلكتروني: bbenlahcene@gmail.com

تم تسلم البحث بتاريخ ٢٠١٥/٣/١٠م، وقُبل للنشر بتاريخ ٢٠١٥/١١/١٥م.

مقدمة:

يسعى الفكر الحضاري الإسلامي إلى إنجاز تنظيري للأطروحة الحضارية التي يحتاجها العالم الإسلامي للخروج من التخلف وإنجاز النهضة، لما يحققه الفكر من بناء للرؤية والمنهج والمفاهيم اللازمة لعملية التحضّر.

وفي خطوة منهجية ومعرفية أساسية، فإن جهداً نقدياً سواء للفكر الغربي أو للتراث الفكري الإسلامي يبدو ضرورياً، من أجل الخروج من المعيقات الذاتية والموضوعية للفكر الإسلامي.

وفي هذا السياق يؤكد العلّامة محمد إقبال -عليه رحمة الله- أن صحوتنا الحضارية تنطلق من تقويم ذاتي لمدارس الفكر الإسلامي وتياراته عبر التاريخ؛ لندرك الإخفاقات التي وقع فيها والإنجازات التي حققها، كما يتطلب التمحيص بروح مستقلة لنتائج الفكر الأوروبي، والكشف عن المدى الذي تستطيع به النتائج التي وصلت إليها أوروبا أن تعيننا في إعادة النظر في فكرنا الإسلامي وعلى بنائه من جديد إذا لزم الأمر.

لذلك فإن محمد إقبال في كتابه (تجديد التفكير الديني في الإسلام) وفي بقية دواوين شعره وأعماله الفكرية، يقدم -من بين ما قدمه من أفكار ومعالجات- مقاربة نقدية للفكر الإسلامي والفكر الغربي، مما يعدّ تأسيساً لأهمية المدخل النقدي في عملية تجديد الفكر الإسلامي.

تهدف هذه الورقة للوصول إلى استخراج قواعد هذا المدخل النقدي للتراث الفكري الإسلامي وللحضارة الغربية التي نجدها مبثوثة في كتاب إقبال (تجديد التفكير الديني في الإسلام) وفي بقية دواوين شعره وأعماله الفكرية، وذلك بتحليل هذا الكتاب المذكور، وكذلك دواوينه وكتبه الأخرى التي بثّ فيها بعض أصوله النقدية للفكر الإسلامي والفكر الغربي، للوصول إلى تحديد أهم الانتقادات التي انتقد بها مدارس التراث الفكري الإسلامي وكذلك الفكر الغربي، وما هي أهمّ المفاهيم التي وضعها نتيجة لمدخله النقدي.

ومن أجل تناول منهجي لهذا الموضوع فإني قسمته إلى محاور ثلاثة؛ أولها التعريف بشخصية إقبال في سياق الموضوع الذي يتم تناوله، وثانيها تشخيص إقبال لواقع الأمة، وثالثها المداخل النقدية التي بدأ بها محمد إقبال مشروعه في تجديد الفكر الإسلامي، والتي هي نقد التراث الإسلامي، ونقد الفكر الإسلامي في عصور انحطاطه، ونقد الفكر والحضارة الغربية.

ذلك أن إقبال يرى أننا كي ننجز تجديداً في الأمة -فكراً وحضارة- ينبغي أن نقوم بخطوتين منهجيتين مهمتين جدا، هما: تشخيص الحالة، والقيام بعملية تمحيص (نقد) الموروث، وتمحيص (نقد) الفكر الإسلامي في عصور ركوده، وتمحيص (نقد) الحضارة الغربية.

أولاً: شخصية إقبال وفلسفته

١. شخصية إقبال:

عرف قراء العربية محمد إقبال (١٨٧٧-١٩٣٨م) أديباً وشاعراً عن طريق أشعاره المترجمة عن اللغتين الفارسية والأوردية، كما عرفوه ناقداً لتاريخ الفكر الإسلامي، وزعيماً من زعماء الإصلاح في العالم الاسلامي المعاصر.[١]

ويعدّ إقبال أحد المفكرين القلائل في المجال الفكري الإسلامي الحديث الذين يذكّروننا بأولئك الفلاسفة والمجددين الكبار الذين عرفهم العالم الإسلامي في تاريخه،[٢] أمثال ابن تيمية والغزالي وابن رشد وابن خلدون وغيرهم.

---

[١] إقبال، محمد. **تطور الفكر الفلسفي في إيران**، ترجمة: حسين الشافعي ومحمد السعيد جمال الدين، الدار الفنية للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م، ص٥، من مقدمة المترجمين.

[٢] الميلاد، زكي. "الفلسفة الذاتية في الفكر الإسلامي المعاصر عند محمد إقبال"، ضمن: **الفلسفة في الفكر الإسلامي قراءة منهجية ومعرفية**، تحرير: رائد جميل عكاشة وآخرون، هيرندن-فرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، ١٤٣٣هـ/٢٠١٢م، ص٣٥٨.

ويعدّ من أكثر المفكرين المسلمين المحدثين جرأة كما يرى فضل الرحمن.[٣] بل إن بصيرته تتجلى في دعوته الصريحة للمسلمين في إعادة النظر والتفكير في مفهومهم ومنهجهم في فهم الإسلام.[٤]

وقد شبّهه الدكتور عثمان أمين بأنه قام بما قام به كانط في الفكر الغربي. ويرى ماجد فخري أن التنسيق الذي عمل إقبال على بسطه في كتاب (تجديد التفكير الديني في الإسلام) يشبه في ضخامته التنسيق الذي قام به الغزالي قبل ذلك التاريخ بنحو ألف سنة في كتاب (إحياء علوم الدين). واهتمّ به الألمان فأسسوا جمعية تسمى (جمعية إقبال) تهتم بنشر أفكاره والتعريف به، ونصبوا له تمثالاً بساحة جامعة ميونيخ التي درس بها وحصل على الدكتوراه عام ١٩٠٨م، وعدّته الباحثة الروسية (ماريتا ستيبانيانتس) رومي العصر.[٥]

نشأ إقبال في أسرة متدينة وثيقة الصلة بحبّ الله ورسوله ﷺ، والالتزام بالقيم العليا للقرآن الكريم وسيرة النبي عليه الصلاة والسلام. ونذكر حادثتين من حياته تدلنا على عمق هذا الارتباط بالله وبرسوله.

يحكي إقبال عن ذلك فيقول: "تعوَّدتُ أن أقرأَ القرآنَ بعد صلاة الصبح كلَّ يوم، وكان أبي يراني، فيسألُني: ماذا أصنع؟ فأُجيبه بأني أقرأ القرآن، وظل على ذلك ثلاثةَ أعوامٍ متتالية، يسألني سؤالَه فأجيبُه جوابي، وذات يوم قلت له: ما بالُك يا أبي تسألني السؤالَ نفسه وأجيبك جواباً واحداً، ثمّ لا يمنعُك ذلك من إعادة السؤالِ من غدٍ؟

فقال: إنما أردتُ أن أقول لك: يا ولدي، اقرأِ القرآنَ كأنما نـزِّل عليك، ومنذُ ذلك اليوم بدأتُ أتفهَّم القرآن، وأقبل عليه، فكان من أنواره ما اقتبست، ومن دُرَره ما نظَمت!"

هذه القصة المختصرة قد تعطي صورةً عن حياة إقبال اللاحقة، باعتبار أن طفولته كان تكتسي بهذا الطابع، وتأثرت كثيراً بتربية والده الصوفية، ويدل على حسن تربية والده له، وتنشئتِه على مأدُبة القرآنِ الكريم.

[3] Muzaffar, Chandra. "Iqbal and the Challenge of Reform within the Muslim World", Intellectual Discourse, 2000, Vol 10, No 2, p 139.

[4] Ibid.

[٥] الميلاد، **الفلسفة الذاتية في الفكر الإسلامي المعاصر عند محمد إقبال**، مرجع سابق، ص٣٥٩-٣٦٠.

ويخبرنا إقبال في ديوانه (رموز بي خودي) عن حادثة أخرى تعبّر عن عمق تدين والده وحبه للنبي ﷺ، ومتابعته في أخلاقه في الرحمة بالضعفاء والاقتداء بسنته ﷺ. يقول إقبال: "وقع على بابنا سائلٌ وقوع القضاء، ورفع صوتَه كأنه نعيبُ غراب، وأخذ يهز الباب...! ولَمَّا آلمني تصايحُه وإلحافه، خرجتُ إليه فهوَيْتُ على رأسه بضربةٍ بعثرَت ما بيده مما جمعه طوال يومه، فلما رأى والدي تلك الحادثة اصفرَّ وجهُه الأحمرُ، وانحدرت الدموعُ نهراً على خدَّيه، وقال:

تذكر يا بني جلالَ المحشَر!

يوم تجتمع أمةُ خير البشر، وارجعِ البصرَ كرة إلى لحيتي البيضاء!

ونحولِ جسمي المرتَعش بين الخوف والرجاء!

كن يا بنيَّ من البراعمِ في غصن (محمَّدٍ)!

وكن زهرةً يُحييها نسيمُ ربيع (المصطفى)!"[٦]

عُرف العلّامة محمد إقبال شاعراً مسلماً عظيماً وفيلسوفاً وسياسياً، وعُدَّ شعره باللغتين الأوردية والفارسية من بين أعظم الأشعار في العصر الحديث، وهو مشهور أيضاً بمساهماته في فلسفة الإسلام الدينية والسياسية، وقد ترجمت أشعاره إلى اللغات الإسبانية والصينية واليابانية والإنجليزية وغيرها.[٧]

طغى الشعر على حياة إقبال ووجدانه رغم عشرات المؤلفات في عدة حقول، ونزوعه السياسي ودراساته في الاقتصاد وحضوره الأكاديمي وهو الحاصل على درجة الدكتوراه في الفلسفة من جامعة ميونيخ الألمانية، واشتغاله في المحاماة التي أحبها.

---

[٦] نقلاً عن:

– عزام، عبد الوهاب. **محمد إقبال سيرته وفلسفته وشعره**، القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ٢٠١٤م، ص٢٥.

– الكيلاني، نجيب. **إقبال الشاعر الثائر**، القاهرة: الشركة العربية للطباعة والنشر، ط١، ١٩٥٩م، ص١٦.

[٧] انظر: **باكستان تحتفي بالشاعر محمد إقبال**، الجمعة ١٤٣٣/١٢/٢٤هـ الموافق ٢٠١٢/١١/٩م.

- http://www.aljazeera.net/home/print/f6451603-4dff-4ca1-9c10-122741d17432/8d630798-c9d4-4c09-a296-49da0561d9d

كان إقبال معادياً للاستعمار البريطاني، وقد حاول الإنجليز استمالته وإغراءه بالمناصب، فعرضوا عليه منصب نائب الملك في جنوب أفريقيا فرفضه. وقد حال اهتمام القرّاء بشعره دون التعرف على مؤلفاته الأخرى، وتحديداً ما يتعلق بدعوته إلى تجديد الفكر الإسلامي الذي ألّف فيه كتاباً بالعنوان نفسه، وكان رائداً في ذلك.

وحمل شعره نفَسَاً فلسفياً صوفياً، ووثقت قصائده لزياراته وسفراته وانطباعاته عن أوضاع المسلمين وحلمه بوحدتهم، كما امتلأ شعر إقبال بالمعاني والمثل الإيمانية، وقد كان في حياته وفي شعره مثالاً للمسلم المعتز بدينه وللعالم المتبحر ذي العقل الكبير، وهو الذي أتقن سبع لغات، وقد اختار الشعر مطية لأفكاره بوصفه دفقات من الوجدان تقتحم القلب بلا استئذان.[٨] فإقبال يعدّ شاعراً وفيلسوفاً مسلماً عبّر عن أفكاره وتصوراته في عدة كتب ودواوين، ومن أشهر كتبه كتاب "تجديد التفكر الديني"، ومن أهم دواوينه: "أسراري خودي" و"جاويدنامه".[٩]

إضافة إلى كونه باحثاً رصيناً وفيلسوفاً متمكناً، اهتّم بالتأمل المتواصل في التراث الإسلامي والفكر الإنساني في مختلف مراحله، خاصة في مرحلته الأخيرة، التي اضطربت فيها السبل وتعددت فيها المذاهب، التي لم تفلح في حلّ الأزمة التي يعاني منها الإنسان المعاصر.

وكان إقبال عميق الإيمان؛ إذ رأى أنه من دون الهدى الذي نزل به القرآن، ومثلته رسالة النبي محمد ﷺ، فلا حل لهذه العقدة ولا خلاص يرجى للإنسانية من آثار الفكر التقليدي وضلالات المذاهب الفكرية المعاصرة. شريطة أن نعيد بناء الفكر الإسلامي من جديد استمداداً من منابعه الأساسية، وإفادة من تجاربه الثرية، ومواجهة لمسؤولياته الحالية، مع العناية بالإنسان المسلم المعاصر، وصقل شخصيته، وبناء وعيه الذاتي.[١٠]

ومن أكثر الأقوال تداولاً حول محمد إقبال عبارة وصفيّة لحسن الزيات: "نبت جسمه في رياض كشمير، وانبثقت روحه من ضياء مكّة، وتألّف غناؤه من ألحان شيراز،

[٨] المرجع السابق.

[٩] الكيلاني، **إقبال الشاعر الثائر**، مرجع سابق، ص٨٦.

[١٠] إقبال، **تطور الفكر الفلسفي في إيران**، مرجع سابق، ص٦، من مقدمة المترجمين.

لسان لدين الله في العجم يفسّر القرآن بالحكمة، ويصوّر الإيمان بالشعر، ويدعو إلى حضارة شرقية قوامها الله والروح، وينفِر من حضارة غربية تقدّس الإنسان والمادّة."[١١]

ولعلنا نجمل العوامل التي أثّرت في تكوينه، فنقول إنها؛[١٢] أولاً: التراث الروحي الصوفي الذي نهل منه على يدي والديه، ومن الحكمة الإسلامية التي تلوّنت بتراث الهند والفرس، وهو تراث يمتدّ إلى جلال الدين الرومي والملا جامي. وثانياً: اطّلاعه على الفلسفات الغربية في شقّها النقدي للغرب المادي وأزماته، وقد استفاد من فلسفة الذاتية التي كان هنري برغسون أكبر ممثّليها، كما كان لاطّلاعه على الشعر الإنجليزي والشعر الألماني تأثير على رؤيته الفنية والفكرية. وثالثاً: قراءته للقرآن الكريم بإعادة تأمُّل داخلي روحاني لا يقف عند اختلافات المفسّرين اللفظية أو الكلامية، ولكنه تشبُّع بالجوهر، كما ورد في القصة المذكورة سابقاً مع والده.

٢. فلسفته الذاتية:

لم يكن إقبال مشتغلاً بالفلسفة وحسب كما أسلفنا، أو يحاكي فلسفات الآخرين ويتثاقف معها، بل هو من أبرز الفلاسفة المسلمين في العصر الحديث، وكان صاحب فلسفة عرفت بالفلسفة الذاتية، وهي الفلسفة التي عرّف إقبال نفسه بها، وقدمها بوصفها فلسفة لها مقومات وركائز وشروط، اجتهد في إبداعها وبنائها ورفدها بالمعارف والتجارب والتأملات... وقد عكست هذه الفلسفة ثلاثة أنماط من التجارب التي عايشها إقبال، هي: التجربة الدينية، والتجربة الشعرية، والتجربة الفلسفية.[١٣]

وكان محور التجربة الدينية هو العلاقة بالله سبحانه في أسمى صورها، أما محور التجربة الشعرية؛ فهو العلاقة بالروح في أسمى تجلياتها. في حين أن محور التجربة الفلسفية هو العلاقة بالعقل في أسمى تجلياته كذلك، وهي تجارب عميقة، وليست تجارب عبور متعاقبة زمناً وتاريخاً، ولم تكن تجارب مفككة ومنفصلة، بل كانت تجارب متعاضدة وراسخة.[١٤]

---

[١١] بومدين، بوزيد. **محمد إقبال مختارات شعرية**، الدوحة: وزارة الثقافة والفنون والتراث، ص٧.

[١٢] المرجع السابق، ص٨.

[١٣] الميلاد، **الفلسفة الذاتية في الفكر الإسلامي المعاصر عند محمد إقبال**، مرجع سابق، ص٣٦١-٣٦٢.

[١٤] المرجع السابق، ص٣٦٢.

لكنه لم يكن يعطيها الدرجة نفسها، ولا يجعلها متكافئة، بل كانت التجربة الدينية أسمى من الآخرين؛ لأنّ "الدين -في أكمل صوره- يسمو فوق الشعر، فهو يتخطى الفرد إلى الجماعة؛ وفي موقفه من الحقيقة الكلية يتعارض مع عجز الإنسان وقصوره، فهو يفسح مطالبه، ويستمسك بأمل لا يقل في شيء عن شهود الحق شهوداً مباشراً."[١٥]

أما في ما يتعلق بالفلسفة؛ فإن إقبال يرى أن "مطمح الدين يسمو فوق مطلب الفلسفة. فالفلسفة نظر عقلي في الأشياء، وهي بوصفها هذا لا يهمها أن تذهب إلى أبعد من تصور يستطيع أن يردّ كل ما للتجربة من صور خصبة إلى نظام أو منهج، فهي كأنما ترى الحقيقة عن بعد، أما الدين؛ فيهدف إلى اتصال بالحقيقة أقرب وأوثق، فالفلسفات نظريات، أما الدين؛ فتجربة روحية ومشاركة واتصال وثيق."[١٦]

وقد لاحظ إقبال -كما لاحظ غيره من زعماء الفكر والإصلاح- أن أزمة العالم الإسلامي منذ زمن طويل لم تكن أزمة في الوسائل وإنما في الأفكار، لذلك اتخذت (فلسفة الذاتية) عند إقبال في أول الأمر منحى إصلاحياً أراد به تغيير المسار الذي التزمه الفكر الإسلامي منذ القرن السابع الهجري حين ارتمى في أحضان مذهب وحدة الوجود،[١٧] وهو المذهب الذي شكك الناس في قيمة الذات الإنسانية، حين عدّ وجودها وجوداً إضافياً منفعلاً لن يلبث أن يفنى في الوجود الحقيقي -وجود الله عز وجل- دون أن يترك أثراً ملموساً أو وسماً ظاهراً في هذه الحياة.[١٨]

وقدّم إقبال فلسفته بشكل أساسي في مقدمتين كتبهما لاثنين من أهمّ دواوينه الشعرية، وهما: (أسرار خودي) ويعني أسرار الذات، وديوان (رموز بيخودي) ويعني

[١٥] إقبال، محمد. **تجديد التفكير الديني في الإسلام**، ترجمة: عباس محمود، راجع مقدمته والفصل الأول منه: عبد العزيز المراغي، وراجع بقية الكتاب: مهدي علّام، القاهرة: دار الهداية للطباعة والنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ص٧.

[١٦] المرجع السابق، ص٧٧.

[١٧] إقبال، محمد. "الديوان الثاني: الأسرار والرموز (أسرار خودي ورموز بي خودي)"، ترجمة: عبد الوهاب عزام، ضمن: **ديوان محمد إقبال الأعمال الكاملة**، سيد عبد الماجد الغوري، دمشق-بيروت: دار ابن كثير، ط٣، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م، ج١، ص١١٣.

[١٨] جمال الدين، محمد السعيد. **نقوش فارسية على لوحة عربية**، القاهرة: الدار الثقافية للنشر، ط١، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، ص٢١.

رموز نفي الذات.[١٩] وفي الأول شرح إقبال هذه الفلسفة من جهة إثبات الذات، وفي الثاني من جهة نفي الذات.[٢٠] وقد حدد إقبال مفهومه للذاتية بقوله: "أرى أن هدف الانسان الديني والأخلاقي إثباتُ ذاته لا نفيها، وعلى قدر تحقيق انفراده أو وحدته يقرب من الهدف."[٢١]

ويستشهد إقبال بالأثر النبوي، بقوله: "قال الرسول ﷺ: (تخلقوا بأخلاق الله)، فكلما شابه الإنسان هذه الذات الوحيدة كان هو كذلك فرداً بغير مثيل. وتنقص فرديته على قدر بعده من الخالق، والإنسان الكامل هو الأقرب لله."[٢٢]

لكن إقبال الذي يحمل على فكرة وحدة الوجود بقوة -كما سنرى في الصفحات المقبلة من البحث- يستدرك على قوله السابق، ويضبطه بما يدل على وعيه الشديد بتميز الذات التي يدعو لها وفعاليتها ورجوعها إلى القرآن وليس إلى ما درجت عليه الفلسفة الإشراقية المتأثرة بالأفلاطونية، فيؤكد إقبال: "ولكن ليس القصد من القرب، أن يُفني وجوده في وجود الله، كما تقول فلسفة الإشراق، بل هو، على نقيض هذا، يمثّل الخالق في نفسه."[٢٣]

وفي هذا السياق القيمي الأخلاقي، يحدد إقبال المعنى الأخلاقي لكلمة (خودي) "تعني خودي من الناحية الأخلاقية في استعمالي لها، الاعتماد على الذات واحترامها والثقة فيها والحفاظ عليها، بل تأكيدها عندما يكون ذلك لمصالح الحياة، والقدرة على الاستمساك بقضية الحق والعدالة والواجب حتى في مواجهة الموت. ومثل هذا السلوك أخلاقي في نظري؛ إذ إنه يساعد في دمج قوى الذات، ويضفي عليها صلابة في مقابل قوى الانحلال والتفكك، ومن الناحية العملية تحمل الذات حقين رئيسيين، ألا وهما الحق في الحياة والحرية، كما تحددها الشريعة الإلهية."[٢٤]

[١٩] إقبال، **الديوان الثاني: الأسرار والرموز (أسرار خودي ورموز بي خودي)**، مرجع سابق، ج١، ص١١-٢٤٨.
[٢٠] الميلاد، **الفلسفة الذاتية في الفكر الإسلامي المعاصر عند محمد إقبال**، مرجع سابق، ص٣٦٤.
[٢١] إقبال، **الديوان الثاني: الأسرار والرموز (أسرار خودي ورموز بي خودي)**، مرجع سابق، ج١، ص١١٩.
[٢٢] المرجع سابق، ج١، ص١٢٠.
[٢٣] المرجع السابق، ج١، ص١٢٠.
[٢٤] نقلاً عن:
- معوض، أحمد. **العلّامة محمد إقبال حياته وآثاره**، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٠م، ص٣٣٢.

ثانياً: تشخيصه لواقع الأمة

إنّ فلسفة الذات (الذاتية) التي صاغها إقبال نستشفها من خلال قراءة أعماله، وسيرة حياته، والظروف التي عاشها، مما يجعلنا ندرك أن هناك عوامل خارجية وعوامل داخلية ساهمت في صياغة فلسفته هذه، أو قل لأسباب متعددة شخّص بها حال الأمة وواقعها، وصاغة فلسفته.

لقد رأى إقبال أن العالم الإسلامي مريض بأمراض شتى؛ بعضها موروث، وبعضها قادم من الحضارة الغربية الحديثة. فنظر إلى العالم الإسلامي نظرة تشخيصية فاحصة؛ ليعرف مرضه، ويصف له العلاج اللازم، فرآه مريضاً بأمراض كثيرة، تقتضي منه تكريس وقت طويل لعلاجه، فكرَّس حياته كلها لعلاج هذه الأمراض المستعصية في جسم العالم الإسلامي.

وإن المتتبع لسيرة نضال إقبال يجد انشغاله الشديد بوضع المسلمين في الهند وما تعرضوا له، ووضع الأمة عموماً، وهي أهم الأسباب التي أدت بها إلى صياغة فلسفة الذاتية التي دعا إليها وصاغها، من أجل أن يستعيد المسلمون في الهند وفي العالم كله ذاتيتهم، ويخرجوا من حالة الاستضعاف والعطالة والهامشية التي هم فيها.

١. وضع المسلمين في الهند:

ففيما يتعلق بوضع المسلمين في الهند، فإن إقبال وقف أمام مفارقتين خطيرتين ومؤثرتين في وضع المسلمين في المجتمع الهندي؛ المفارقة الأولى: ذات طبيعة فكرية؛ إذ كانت تتنازع ثقافة المسلمين هناك اتجاهات صوفية تدفع نحو فناء الذات من جهة، واتجاهات تغريبية تدفع نحو استتباع الذات من جهة أخرى. والمفارقة الثانية: ذات طبيعة اجتماعية؛ إذ كان الوجود الإسلامي هناك واقعاً تحت تأثير قوتين كبيرتين: قوة الأغلبية الهندوسية داخل المجتمع الهندي، التي حاولت تذويبه في فضائها الواسع الكبير، وقوة الاستعمار الإنجليزي التي تسعى إلى أن تحلله، وتفرض التبعية عليه، وتربطه

بمجتمع المستعمر. وأراد إقبال بفلسفته الذاتية تمكين المسلمين من مواجهة هاتين القوتين.[٢٥]

فكان المسلمون يتعرضون لتحديات من هذين الجانبين، وطرحت قضية الأنا والآخر؛ الأنا المسلمة، والآخر الهندوكي، والآخر الغربي الأوروبي المتمثل في الإنجليز وهيمنتهم الاستعمارية والحضارية. إضافة إلى هجمات الطوائف الدينية المستحدثة مثل القاديانيين. فكان هذا الواقع المعاش يفرض على المفكرين المسلمين الهنود، وإقبال واحد منهم، أن يكون لهم موقف تجاه هذا الواقع الذي يعيشه المسلمون في الهند خصوصاً وفي العالم عموماً.[٢٦]

ويصوّر إقبال تكالب الجميع على المسلم في ديوانه (ضرب الكليم) بقوله:[٢٧]

قال البرهمن: خائنُ أوطانه ... والإنكليز تقول: هذا مجتدي

ونبوّة البنجاب قالت: كافر ... مستمسك بقديمه لا يهتدي

أيّان صوتُ الحقِّ يعلو هاهنا؟ ... ويلٌ لقلبي في الصراع المُجهد

ولهذا دعا إلى قيام دولة للمسلمين في مناطق الأكثرية المسلمة في الهند، لحمايتهم من الذوبان والتحلّل، وتتجلى فيها مدنية الإسلام وعبقرية الشريعة الإسلامية، ولتكون فرصة مواتية حسب قوله: "لتقديم الإسلام للعالم على حقيقته الكاملة في أسلوب يطابق روح العصر الجديد، خالياً مما أصابه من تشويه في عهد بعض الحكومات التي لم يكن يعنيها تطبيق مبادئه وإرساء قواعده."[٢٨]

٢. وضع الأمة عموماً:

أما فيما يتعلق بصلة إقبال بأمته؛ فقد كان إقبال وثيق الصلة بالأمة الإسلامية؛ الأمة التي ينتمي إلى هويتها وثقافتها وتاريخها، ويتحسس آلامها وآمالها، وظل يتطلع

[٢٥] الميلاد، **الفلسفة الذاتية في الفكر الإسلامي المعاصر عند محمد إقبال**، مرجع سابق، ص٣٦٩.

[٢٦] نصّار، عصمت. **الصراع الثقافي والحوار الحضاري في فلسفة محمد إقبال**، القاهرة: دار القلم للنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م، ص٦، ١٤.

[٢٧] إقبال، محمد. "الديوان السادس: ضرب الكليم"، ضمن: **ديوان محمد إقبال الأعمال الكاملة**، مرجع سابق، ج٢، ص٥٧٥.

[٢٨] الميلاد، **الفلسفة الذاتية في الفكر الإسلامي المعاصر عند محمد إقبال**، مرجع سابق، ص٣٦٩-٣٧٠.

إلى اليوم الذي تستعيد فيه هذه الأمة مدنيتها ومجدها وازدهارها الحضاري، وشعره ونثره ينبضان بهذه الروح ويتألقان بها.[٢٩]

ولهذا فإنه لم يهتم بواقع الأمة في الهند فقط، بل كان شديد الاهتمام "بسياسة الغرب الاستعمارية في الهند بخاصة، والعالم الإسلامية بعامة، وتآمر الغرب على الخلافة العثمانية حتى سقطت، وازدياد حملات المستشرقين على العالم الإسلامي، وازدياد حركات التشكيك في الدين، والتغريب والتبشير، وتعمد إذلال المسلمين عن طريق إضعافهم اقتصادياً بالاستدانة، وتصريح ساسة أوروبا ومفكريها بعدائهم للإسلام، وعملهم على تقسيم أقطاره وتقطيع أوصاله... وتفاقم الخطر الصهيوني ولا سيما بعد وعد بلفور."[٣٠]

ومن أهمّ ما أنشد من قصائد شخص فيها ما يعانيه العالم الإسلامي من أمراض، نجد قصيدة (شكوى وجواب الشكوى) أو كما سماهما العلّامة أبو الحسن الندوي (العتاب والشكوى)[٣١] الواردة في ديوان صلصلة الجرس.[٣٢]

ففي قصيدة "شكوى" يشكو إلى رسول الله ﷺ أحوال المسلمين، وما أصاب حياتهم من تدهور، ومكانتهم من ضعف واضمحلال. يقول إقبال:

قد هبّت الأصنام من بعد البلى ... واستيقظت من قبل نفخ الصور
والكعبة العليا توارى أهلها ... فكأنهم موتى لغير نشور
وقوافل الصحراء ضلَّ حداتها ... وغدت منازلها ظلال قبور
أنا ما حسدت الكافرين وقد غدوا ... في أنعم ومواكب وقصور[٣٣]

---

[٢٩] المرجع السابق، ص٣٧٠.

[٣٠] نصّار، **الصراع الثقافي والحوار الحضاري في فلسفة محمد إقبال**، مرجع سابق، ص٨.

[٣١] الندوي، أبو الحسن علي الحسني. **روائع إقبال**، دمشق: دار الفكر، ط١، ١٣٧٩هـ/١٩٦٠م، ص١٧.

[٣٢] إقبال، محمد. "الديوان الأول: صلصلة الجرس"، ترجمة: الشيخ صاوي شعلان المصري، ضمن: **ديوان محمد إقبال الأعمال الكاملة**، مرجع سابق، ج١، ص٨٧-١١٠.

[٣٣] إقبال، محمد. "قصيدة (شكوى)، الديوان الأول: صلصلة الجرس"، ضمن: **ديوان محمد إقبال الأعمال الكاملة**، مرجع سابق، ج١، ص٩٦.

فهو يصف رجوع الجاهلية من جديد وغياب الإسلام عن قيادة حياة المسلمين، وتخلف المسلمون عن قيادة ركب الحضارة الإنسانية وتقدم غيرهم لقيادتها، وتحصيل سبل التحضر والقوة والتمكين، ويصرخ متسائلاً لماذا ترك المسلمون مكانتهم بعد أن سادوا، ولماذا تركوا هداية الناس بعد أن هجروا مكانتهم:

كيف انطوت أيامهم وهم الأولى نشروا الهدى وعلَوا مكان الفرقدِ
هجروا الديارَ فأين أزمعَ ركبهم من يهتدي للقوم أو من يقتدي[٣٤]

أما في قصيدة (جواب الشكوى)؛ فيبيّن فيها أنه سمع صوتاً سماوياً تخيّله يجيبه عن شكواه ويبيّن له أصل الداء، وهو أن المسلمين تركوا العمل وقصّروا في أداء واجبهم، وأهملوا دينهم، و لم يتقنوا أمور الدنيا، فأصابهم الخزي والهوان:[٣٥]

أتشكو أن ترى الأقوام فازوا بمجد لا يراه النائمونا
مشوا بهدى أوائلكم وجدّوا وضيعتم تراث الأولينا[٣٦]

كما أنه اشتكى إهمال الأمة لرسالتها الإسلاميَّة التي جعلتْ منها أمَّة حية قوية في يوم ما، ويقظة الروح الجاهلية في نفوس أبنائها من جديد، فقال:

تُراثُ محمدٍ قد أهملوه فعاشوا في الخلائق مُهمَلينا
تولَّى هادِمو الأصنام قِدْماً فعاد لها أولئك يَصنعونا
أباهُمْ كان إبراهيم لكن أرى أمثالَ آزر في البنينا[٣٧]

وشكى ضياع الإيمان والدِّين والوفاء، وشيوع الظلم وفساد الأخلاق، فقال:

لقد ذهب الوفاءُ فلا وفاءٌ وكيف ينالُ عهدي الظالمينَا
إذا الإيمان ضاع فلا أمانٌ ولا دنيا لمن لم يُحْيِ دِينَا
ومَن رضي الحياة بغير دينٍ فقد جعَلَ الفناءَ لها قرينَا[٣٨]

---

[٣٤] المرجع السابق، ص٩٧.
[٣٥] جمال الدين، **نقوش فارسية على لوحة عربية**، مرجع سابق، ص١٤٥.
[٣٦] إقبال، محمد. **قصيدة (جواب الشكوى)، الديوان الأول: صلصلة الجرس**، مرجع سابق، ج١، ص١٠٤.
[٣٧] المرجع السابق، ج١، ص١٠٢.
[٣٨] المرجع السابق، ج١، ص١٠٣.

وشكى التفرُّق بعد أن كانوا أمة واحدة، فأصبحوا أممًا مُتفرِّقة، فراح يحذرهم من التفرق. يقول إقبال:

وفي التوحيد للهِممِ اتحادٌ ولن تبنوا العُلا مُتفرِّقينا
تَساندتِ الكواكبُ فاستقرَّت ولولا الجاذبيَّةُ ما بقينا[٣٩]

وشكى ترْك الجهاد في سبيل الله، والخوف من الموت، والوَهن الذي عشعش في النفوس، فلم يُبقِ في الأمة حياةً، فكان ما كان من قهرنا وذُلنا تُجاه الأعداء:

جهادُ المؤمنين لهم حياة ألاَ إنَّ الحياةَ هي الجهادُ
عقائدهم سواعد ناطقات وبالأعمال يثبت الاعتقاد
وخوفُ الموتِ للأحياء قَبْرٌ وخوفُ الله للأحرار زادُ[٤٠]

هذه وغيرها من مظاهر المرض التي شخصها إقبال في الأمة، جعلته يتجه إلى صياغة مشروعه الإصلاحي في بعث الأمة من جديد، والعودة إلى "ذاتها" وبناء "ذاتيتها" عن طريق فلسفة الذاتية التي ذكرناها من قبل، والتي يقوم النقد والتمحيص للموروث الفكري وللواقع الفكري للأمة وللحضارة الغربية ركناً ركيناً في هذه الفلسفة وهذا هو المشروع الإصلاحي.

ثالثاً: المداخل النقدية

إن التشخيص الذي قدمه إقبال لواقع الأمة، وسعيه إلى بناء ذاتية الأمة وحمايتها يتطلب عملية إصلاح وتجديد للفكر الديني الإسلامي، وإن هذا الإصلاح والتجديد المنشود يجب أن يقوم على قاعدة نقدية، تتناول الفكر الموروث، والوافد معاً، وذلك بعد ترسيخ القيم الدينية في ذاتنا لتحمينا من الاستغراق في الموروث أو الوقوع في أسر الحديث الوافد.[٤١]

---

[٣٩] المرجع السابق، الصفحة نفسها.
[٤٠] المرجع السابق، ج١، ص١٠٤.
[٤١] نصّار، **الصراع الثقافي والحوار الحضاري في فلسفة محمد إقبال**، مرجع سابق، ص١٣.

إنّ صحوتنا الحضارية تنطلق من تقويم ذاتي لمدارس الفكر الإسلامي وتياراته عبر التاريخ لندرك الإخفاقات التي وقع فيها والإنجازات التي حققها،كما يتطلب التمحيص بروح مستقلة لنتائج الفكر الأوروبي، والكشف عن المدى الذي تستطيع به النتائج، التي وصلت إليها أوروبا أن تعيننا في إعادة النظر في فكرنا الإسلامي وعلى بنائه من جديد إذا لزم الأمر.

وهذا يدل -كما يرى إقبال- على أننا نحتاج إلى "بناء الفلسفة الدينية الإسلامية بناء جديداً، آخذاً بعين الاعتبار المأثور من فلسفة الإسلام، إلى جانب ما جرى على المعرفة الإنسانية من تطور في نواحيها المختلفة."[٤٢]

ولهذا فإن القارئ لكتب إقبال ودواوينه الشعرية، سيجد أنّ إقبال سنّ نهجاً مهماً في عملية تقويم شاملة للفكر الإسلامي والغربي؛ من أجل أن يمهد الأرضية لمرحلة بناء فلسفة الذاتية التي تبعث الذات الإسلامية فاعلة في التاريخ صانعة للحضارة.

ولذلك نجد عنده نقداً للتراث الإسلامي، ونقداً للفكر الإسلامي في عصوره المتأخرة، وكذلك نقداً للحضارة الغربية والفكر الغربي.

١. نقد التراث:

إن نقد التراث بالنسبة لإقبال تطلب منه مراجعة إنجازات التراث الفكري والديني الإسلامي عبر التاريخ، سواء في رسالته للدكتوراه (تطور الفكر الفلسفي في بلاد فارس) أو في كتابه (تجديد التفكير الديني في الإسلام) أو في دواوينه الشعرية. ودفعه هذا الموقف النقدي إلى النظر في إنجازات الفكر الإسلامي وإخفاقاته، وإلى العوامل التي أدت إلى تلك الاخفاقات.

أ. أثر الفلسفة اليونانية (نقد المنبهرين بالنظر الفلسفي القديم):

بالنسبة لإقبال، فإن الفكر الإسلامي استفاد من الفلسفة اليونانية بوصفها قوة ثقافية كبيرة، لكن المشكلة وقعت حينما هيمن منظور الفلسفة اليونانية على الفكر

[٤٢] إقبال، **تجديد التفكير الديني في الإسلام**، مرجع سابق، ص٤.

الإسلامي في تناوله للمسائل العقدية وفي درس القرآن الكريم، حيث وقع تحت أسر عباءة الفكر اليوناني الذي يجنح للتأمل ولا يحتفل بالعمل. يقول إقبال: "إنّ الفلسفة اليونانية -على ما نعرف جميعاً- كانت قوة ثقافية عظيمة في تاريخ الإسلام، ولكن التدقيق في درس القرآن الكريم، وفي تمحيص مقالات المتكلمين على اختلاف مدارسهم التي نشأت ملهمة بالفكر اليوناني، يكشفان عن حقيقة بارزة، هي: أن الفلسفة اليونانية مع أنها وسّعت آفاق النظر العقلي عند مفكري الإسلام غشّت على أبصارهم في فهم القرآن."[٤٣]

والمشكلة حسب إقبال أن سقراط، ومن بعده من تلميذ أفلاطون وغيرهما اكتفيا بالتأمل وازدريا العمل والإدراك الحسي، ولهذا يرى إقبال أن هذا بعيد عن روح القرآن؛ إذ يقول: "وما أشدّ مخالفة هذا الروح لروح القرآن الذي يرى في النحل على ضآلة شأنه محلاً للوحي الإلهي، والذي يدعو القارئ دائماً إلى النظر في تصريف الرياح المتعاقب، وفي تعاقب الليل والنهار والسحب، والسماء ذات النجوم، والكواكب السابحة في فضاء لا يتناهى."[٤٤] ولعله يشر إلى قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ (النحل: ٦٨-٦٩) وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ (البقرة:١٦٤).

فإقبال يرى أن النسق الفلسفي اليوناني الذي يزدري الحواس والعمل، ويحتفل بالتأمل، نسق وروح بعيدان عن روح القرآن التي تحتفل بالعمل وتقرنه بالنظر، وتحتفل بالحس والحواس، وتمنّ على الإنسان بأن الله زوده بها.

يقول إقبال: "وما أبعد هذا القول عن تعاليم القرآن الذي يعد السمع والبصر أجل نعم الله على عباده، ويصرح بأن الله جل وعلا سوف يسألهما في الآخرة عما فعلا في

[٤٣] المرجع سابق، ص١٠.

[٤٤] المرجع سابق، ص١٠.

الحياة الدنيا،"[٤٥] وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ (الإسراء: ٣٦).

ويرى إقبال أن هذا الأمر فات على المفكرين والعلماء المسلمين الأوائل ممن افتتن بالفلسفة اليونانية فأبعدتهم عن منطق القرآن. يقول: "وقد فات هذا الأمر المتقدمين من علماء الاسلام الذين عكفوا على درس القرآن بعد أن بهرهم النظر الفلسفي القديم، فقرؤوا الكتاب على ضوء الفكر اليوناني."[٤٦] ولم ينتبهوا لذلك في بداية أمرهم وقضوا دهراً متّبعين هذا الاتجاه المعارض في جوهره لروح القرآن، ولهذا يقول إقبال: "ومضى عليهم أكثر من قرنين من الزمان قبل أن يتبيّن لهم في وضوح غير كافٍ أن روح القرآن تتعارض في جوهرها مع تعاليم الفلسفة القديمة، وقد نجم عن إدراكهم هذا نوع من الثورة الفكرية لم يدرَك أثرها الكامل إلى يومنا هذا."[٤٧]

كما أن الأفلاطونية وما شابهها من الفلسفات التي تأثر بها بعض المتصوفة وفلاسفة الإشراق لها أثر سلبي في أنها تؤدي إلى الإفناء لا البقاء، وتغفل المادة، وتدعو إلى الفرار من الحياة لا تسخيرها. بل يرى إقبال أن من أسباب ترْك العمل والجهاد تَغلغُلَ فلسفة اليونان في الثقافة الإسلاميَّة، التي تدعو إلى ترْك الدنيا، وإلى الخمول والتواكل، يقول إقبال:

راهبُ الماضين أفلاط الحكيم ... من فريق الضأن في الدهرِ القديمْ
طرفه في ظُلمة المعقول ضلّ ... في حزون الكون قد أعيا وكلّ
فِكْرُه في غير محسوس فُتِن ... صدَّ عن كفٍّ وعين وأذنْ
قال: في الموت بدا سرُّ الحياة ... في خمودِ الشمع يزداد سناهْ
حكمه في فكرنا جدّ عظيم ... يمحق الدنيا له جام مُنيم
هو شاةٌ في لباس الآدمي ... وهْو في الصوفي ذو بأسٍ قوي

[٤٥] المرجع سابق، ص١١.
[٤٦] المرجع سابق، ص١١.
[٤٧] المرجع سابق، ص١١.

عـــالم الأشـــياء سمـــاه الهـــراء وعلت أفكاره فـــوق الســـماء
فكـــره يغفـــى ورؤيـــا يخلـــق عينـــــه تبصـــــر ألا يـــــبرَق
هُلـــك أقـــوام بهـــذا الثَّمَـــل حُرِموا بـــالنوم ذوقَ العمـــل[٤٨]

يقول إقبال: "واعتراضي على أفلاطون، هو في أصله اعتراضٌ على كل الـــنظم الفلسفية التي تقصد إلى الفناء، لا البقاء، والتي تُغفل المادة، وهي أكبر العقبات في سبيل الحياة، وتدعو إلى الفرار منها، لا إلى تسخيرها، والتسلط عليها."[٤٩]

هذا التأثير للفلسفة اليونانية، والثورة المتأخرة على روحها، كان لـــه أثـــر علـــى الفلاسفة والمتكلمين، فسلك الغزالي وابن رشد والأشاعرة وغيرهم طرقاً شـــتى لبنـــاء الفكر الإسلامي، مما كان له آثاره الإيجابية والسلبية إلى اليوم.

فبالنسبة للغزالي يرى إقبال أنه "كان من نتائج هذه الثورة من ناحيـــة، وبتـــأثير ظروف الأحوال الشخصية الأخرى، أن اتجه الغزالي إلى إقامة الدين على دعائم مـــن التشكيك الفلسفي، وهي دعائم غير مأمونة العواقب على الدين تماماً، ولا تســـوغها روح القرآن كل التسويغ."[٥٠]

أما بالنسبة لابن رشد؛ فيرى إقبال أنه أهدر النظرة القرآنية لقيمة النفس الانسانية ومصيرها بسبب متابعته لأرسطو في فكرة خلود النفس بطابعها الأرسطي، ممـــا أورث نظراً فلسفياً يؤدي إلى الضعف وإلى انطماس البصيرة. يقول إقبال: إنّ "ابن رشـــد – أكبر خصوم الغزالي، والمنافح عن الفلسفة اليونانية ضد الثائرين عليهـــا– قـــد تـــأثر بأرسطو فاصطنع المذهب القائل بخلود العقل الفعّال... لكنه في رأيي يتعارض تماماً مع نظرة القرآن إلى قيمة النفس الإنسانية وإلى مصيرها، وبهذا غابت عن ابن رشد فكـــرة إسلامية مثمرة عظيمة، وساعد عن غير قصد على نمو فلسفة للحياة تورث الضـــعف، وتغشى على بصر الإنسان عند نظره إلى نفسه، وإلى ربه وإلى دنياه."[٥١]

---

[٤٨] إقبال، **الديوان الثاني: الأسرار والرموز (أسرار خودي ورموز بي خودي)**، مرجع سابق، ج١، ص١٤٧-١٤٨.
[٤٩] المرجع السابق، ج١، ص١٢١.
[٥٠] إقبال، **تجديد التفكير الديني في الإسلام**، مرجع سابق، ص١١.
[٥١] المرجع السابق، ص١١.

أما بالنسبة للأشاعرة، فبالرغم من اعترافه بأنهم كانوا على طريق الصواب، لاعتمادهم أسلحة المنطق اليوناني، لكنه وجه لهم نقداً باعتبار أن غايتهم كانت قاصرة على الدفاع؛ إذ يقول: "وليس من شك في أن البناة من مفكري الأشاعرة كانوا على طريق الصواب، وقد سبقوا الفلسفة المثالية إلى قدر من أحدث آرائها، وإن كانت حركة الأشاعرة في جملتها لا غاية لها إلا الدفاع عن رأي أهل السنة بأسلحة من المنطق اليوناني."[٥٢]

أما المعتزلة فمشكلتهم في أنهم اختزلوا الدين في نسق من العقائد؛ نسق من المعاني المنطقية انتهت إلى موقف سلبي، لعله يذكرنا بالنقد الذي وجهه متكلمو أهل السنة إلى المعتزلة من أن غلوهم في التأويل أدى بهم إلى نفي الصفات، وأوصلهم إلى ما يشبه من موقف سلبي من صفات الذات الإلهية، وليِّ رؤوس النصوص التي لا تنسجم مع مسلماتهم العقلية.

يقول إقبال: "أما المعتزلة فقد قصروا إدراكهم للدين على أنه مجموعة من العقائد، متجاهلين أنه حقيقة حيوية –فلم يحفلوا بأساليب إدراك الحقيقة إذا كانت لا تقبل التصوّر، وأرجعوا الدين إلى نسق من المعاني المنطقية انتهى إلى موقف سلبي بحت، وغاب عنهم أنه في ميدان المعرفة –علمية كانت أو دينية– لا يمكن للفكر أن يستقل تمام الاستقلال عن الواقع المتحقق في عالم التجربة."[٥٣]

كما أن إقبال يتعجب من انجرار الفلاسفة والمتكلمين وراء اصطلاحات الفلسفة اليونانية وضيق أفقها وبعدها عن روح القرآن، سواء ما تعلق منها بمسألة الربط بين النظر والعمل السابق ذكرها، أو ما يتعلق بالنفس الإنسانية وشخصية الإنسان كما أكد عليها القرآن.

وفي سياق نقده لانجرار الفكر الإسلامي وراء تحديدات ماهية النفس في الفلسفة اليونانية بعيداً عن روح القرآن، ينتقد إقبال المتكلمين والفلاسفة؛ إذ يقول: "على أنه

[٥٢] المرجع السابق، ص١١-١٢.
[٥٣] المرجع السابق، ص١٢.

مما يثير العجب أن ترى أن وحدة الشعور الإنساني وهي مركز الشخصية الإنسانية لم تكن قط موضع اهتمام جدي في تاريخ الفكر الإسلامي، فالمتكلمون عدّوا النفس جوهراً لطيفاً، أو مجرد عرض يفنى بفناء الجسد، ثم يخلق مرة أخرى في يوم الحشر، وفلاسفة الإسلام استلهموا آراءهم فيها من الفكر اليوناني."[٥٤]

ب. ثورة الفكر الإسلامي على الفلسفة اليونانية:

على الرغم من النقد الذي وجهه إلى التراث الإسلامي، فإن إقبال لا ينكر أن الفكر الإسلامي انتبه بعد قرنين من الجدل إلى مخالفة النظر الفلسفي اليوناني لروح القرآن، فدعوة القرآن إلى اعتبار التجربة (رياضة الباطن) والطبيعة والتاريخ مصادر للمعرفة، وإلى اعتبار عالم الحس والاستشهاد به، كل ذلك انتهى "بمفكري الإسلام إلى مناقضة الفكر اليوناني."[٥٥]

ولكن بعد أن قضوا زمناً في الافتتان به، حيث إنهم "أقبلوا في باكورة حياتهم العقلية على دراسة آثاره في شغف شديد؛ ذلك أنهم لم يفطنوا في أول الأمر إلى أن روح القرآن تتعارض في جوهرها مع هذه النظرات الفلسفية القديمة، وبما أنهم كانوا قد وثقوا بالفلاسفة اليونان، أقبلوا على فهم القرآن في ضوء الفلسفة اليونانية."[٥٦]

وكان الإخفاق سببه أن "روح القرآن تتجلى فيها الروح الواقعية، على حين امتازت الفلسفة اليونانية بالتفكير النظري المجرد وإغفال الواقع المحسوس." وهذا أدّى إلى ثورة على الفلسفة اليونانية، كما فعل التفكير الفلسفي للأشاعرة، والنظّام، والغزالي، وابن تيمية، والرازي، وابن حزم، والبيروني وغيرهم.[٥٧]

ولهذا فإن تحرر العقل الإسلامي من أسر العقل اليوناني أدّى إلى نشأة منهج الملاحظة والتجربة، "فاليونان الذين اتجهت عنايتهم إلى النظري المجرد دون الواقع

[٥٤] المرجع السابق، ص١١٣-١١٤.
[٥٥] المرجع السابق، ص١٥٢.
[٥٦] المرجع السابق، ص١٥٢.
[٥٧] المرجع السابق، ص١٥٢-١٥٣.

المحسوس، اتجه تأثيرهم على الأكثر إلى حجب أنظار المسلمين عن فهم القرآن، ووقف حائلاً بين المزاج العربي العملي وبين إثبات وجوده واستقلاله خلال قرنين من الزمان على الأقل."[٥٨]

ولهذا يرى إقبال أن طبيعة الثقافة الإسلامية مختلفة عن طبيعة الثقافة اليونانية، يقول: "إني أودّ أن استأصل تلك الفكرة الخاطئة التي تزعم أن الفكر اليوناني شكّل طبيعة الثقافة الإسلامية."[٥٩]

٢. نقد ركود الفكر الإسلامي المتأخر:

كما توجه إقبال بالنقد لتأثير الفلسفة اليونانية للفكر الإسلامي القديم وإصابته بأمراضها وبعده عن روح القرآن قرنين من الزمان، فإنه توجّه بالنقد أيضاً للفكر الإسلامي في عصوره المتأخرة. يقول إقبال: "ظل التفكير الديني في الإسلام راكداً خلال القرون الخمسة الأخيرة،" هذا الركود جعل الفكر الإسلامي يفقد أصالته، ويقع تحت تأثير الحضارة الغربية وينبهر بإنجازاتها، ولهذا فهو يتعجب من سرعة إقبال المسلمين على هذه الحضارة.

ونعى إقبال على المسلمين جمودهم على القديم وتقصيرهم في الإبداع والابتكار. فكانت حملته على التقليد موجهة للمدارس والاتجاهات جميعها؛ سواء الصوفية والدراويش أو الشيوخ التقليديون،[٦٠] فقال: "والجمود على القديم في الدين ضارّ كما هو ضارّ في أي ناحية أخرى من نواحي النشاط الإنساني، فهو يقضي على حرية الذات المبدعة، ويسد المنافذ الجديدة للإقدام الروحاني. وهذا هو السبب الرئيسي في عجز الطرق التي اتبعتها صوفية القرون الوسطى عن تخريج أفراد لهم قوة الإبتكار على كشف الحق القديم."[٦١]

---

[٥٨] المرجع السابق، ص١٥٦.

[٥٩] المرجع السابق، ص١٥٦.

[٦٠] نصّار، **الصراع الثقافي والحوار الحضاري في فلسفة محمد إقبال**، مرجع سابق، ص١٥.

[٦١] إقبال، **تجديد التفكير الديني في الإسلام**، مرجع سابق، ص٢١١.

وهذا ما جعل أبناء المسلمين في العصور الحديثة يسارعون إلى تقليد الغرب، يقول إقبال: "فإن أبرز ظاهرة في التاريخ الحديث هي السرعة الكبيرة التي ينزع بها المسلمون في حياتهم الروحية نحو الغرب. ولا غبار على هذا المنزع، فإن الثقافة الأوروبية في جانبها العقلي ليست إلا ازدهاراً لبعض الجوانب المهمة في ثقافة الإسلام. وكل الذي نخشاه هو أن المظهر الخارجي البراق للثقافة الأوروبية قد شلّ تقدمنا؛ فنعجز عن بلوغ كنهها وحقيقتها."[٦٢]

كما ينتقد إقبال متأخرة الصوفية والتصوف المتأخر، ويرى أنه صار عاجزاً وفقد فعاليته؛ لأنه لم يطوّر من أساليبه، فيقول: "وقد عملت المذاهب الصوفية الصحيحة عملاً طيباً من غير شك في تكييف الرياضة الدينية في الإسلام، وفي توجيه خطاها، ولكنّ الممثلين لفكرة التصوف في العصر الأخير، بحكم بُعدهم عن نتائج العقل الحديث، أصبحوا عاجزين تمام العجز عن قبول أيّ إلهام جديد من الفكر الحديث والتجربة العصرية. وهم يزاولون أساليب خلقت لأجيال كانت لها نظرة ثقافية تختلف عن نظرتنا نحن في نواح مهمة."[٦٣]

بل إنّ "هذه الروح التي طبع بها التصوف في عصوره الأخيرة حجبت أنظار الناس عن ناحية مهمة من نواحي الإسلام بوصفه دستوراً اجتماعياً."[٦٤]

ولهذا لاحظ إقبال -كما لاحظ غيره من زعماء الفكر والإصلاح- أن أزمة العالم الإسلامي منذ زمن طويل لم تكن أزمة في الوسائل وإنما في الأفكار، لذلك اتخذت هذه النظرية عند إقبال في أول الأمر منحىً إصلاحياً أراد به تغيير المسار الذي التزمه الفكر الإسلامي منذ القرن السابع الهجري حين ارتمى في أحضان مذهب وحدة الوجود، وهو المذهب الذي شكّك الناس في قيمة الذات الانسانية، حين عدّ وجودها وجوداً

[٦٢] المرجع السابق، ص١٥.
[٦٣] المرجع السابق، ص٣.
[٦٤] المرجع السابق، ص١٧٨.

إضافياً منفعلاً لن يلبث أن يفنى في الوجود الحقيقي –وجود الله عز وجل – دون أن يترك اثراً ملموساً أو وسماً ظاهراً في هذه الحياة.[٦٥] فلم تعد غاية الإنسان أن يعمل كي ينال الخلود في رضا الله تعالى، بل غايته أن ينكر ذاته ويعمل على إذلالها وإماتتها حتى تؤهل للفناء في الله، كما تفنى القطرة في البحر.

ولم يقف الأمر عند المفكرين والأفراد من الناس، بل انتقلت مقولات مذهب وحدة الوجود إلى سائر طبقات المجتمع الاسلامي على أجنحة الشعر، والشعر أداة خلّابة تفعل الأعاجيب بالإنسان. وقد اتخذه الصوفية – من أصحاب وحدة الوجود – وسيلة لبث أفكارهم في النفس، فتدفق ينبوع الشعر حاملاً معه إلى نفوس المسلمين أفكار وحدة الوجود والاستسلام ونكران الذات، الأمر الذي أدى بهم إلى التواكل وسقوط الهمة، وازدراء العمل وتحقيره.[٦٦]

٣. نقد الحضارة الغربية:

أ. في الصلة بالحضارة الغربية:

يعدّ العلّامة إقبال أحد روّاد التجديد الإسلامي الذين انتقدوا الحضارة الغربية الحديثة، وفحص معطياتها،[٦٧] وفي هذا يقول الندوي: "لقد كان في مقدِّمة هؤلاء الناقدين الثائرين محمد إقبال، الذي يُعدّ بحق أنبغ عقل أنتجتْه الثقافة الجديدة، والتي ظلَّت تَشتغِل وتُنتِج في العالم الإسلامي من قرن كامل، وأعمق مُفكِّر أوجده الشرق في عصرنا الحاضر، ولم نرَ من نوابغ الشرق وأذكيائه –على كثرة من لهم اتصال بالغرب والدراسة هناك– أحداً نظَر في الحضارة الغربية هذا النظر العميق، وانتقدها هذا الانتقاد الجريء."[٦٨]

---

[٦٥] جمال الدين، **نقوش فارسية على لوحة عربية**، مرجع سابق، ص٢١.

[٦٦] جمال الدين، **نقوش فارسية على لوحة عربية**، مرجع سابق، ص٢١-٢٢.

[٦٧] نصّار، **الصراع الثقافي والحوار الحضاري في فلسفة محمد إقبال**، مرجع سابق، ص٨.

[٦٨] الندوي، أبو الحسن علي الحسيني. **الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية**، الكويت: دار القلم، ط٤، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ص٨١.

ولعل هذا نجده في معظم أعمال إقبال، سواء النثرية أو الشعرية، خاصة أن الحضارة الغربية -كما يرى إقبال- استلمت مشعل الحضارة والفكر بعد أن توقف عطاء الحضارة الإسلامية في القرون الأخيرة.

وللحاجة إلى تجديد التفكير الإسلامي، رأى إقبال أن "واجبنا يقتضي أن نرقب في يقضة وعناية تقدّم الفكر الإنساني، وأن نقف منه موقف النقد والتمحيص."[٦٩] خاصة أن أوروبا خلال القرون التي أصبنا فيها بالركود، كانت تدأب في بحث المشكلات الكبرى، وحدث تقدم لا حدّ له في مجال الفكر والتجربة، وكان من نتائج امتداد سلطان الإنسان على الطبيعة، أن بعث فيه ذلك إيماناً وإحساساً جديدين بتفوقه على القوى التي تتألف منها بيئته، فظهرت وجهات نظر جديدة، وحررت مرة ثانية المشكلات القديمة في ضوء التجربة الحديثة، وظهرت مشكلات من نوع جديد.[٧٠]

فتطور التفكير العلمي اكتسب تطورات جديدة وفتح للإنسان آفاقاً جديدة من النظر إلى المشكلات الجديدة، ولهذا لا عجب أن نجد الشباب المسلم... يتطلبون توجيهاً جديداً بعقيدتهم، ولهذا فإن صحوة المسلمين ويقضتهم تحتاج أن يصاحبها نقد وتمحيص بروح مستقلاً ومقارنة بما عند الآخرين.

ولذلك فإن اليقظة الإسلامية تحتاج أن تمحص وتنتقد نتائج هذه الحضارة المهيمنة، أو بتعبير إقبال "لا بدّ أن يصاحب يقظة المسلمين تمحيص بروح مستقلة لنتائج الفكر الأوروبي، وكشف عن المدى الذي تستطيع به النتائج التي وصلت إليها أوروبا أن تعيننا به في إعادة النظر في التفكير الديني في الإسلام، وعلى بنائه من جديد إذا لزم الأمر."[٧١]

هذا التمحيص اقتضى توجيه نقده لمادية الحضارة الغربية ولآثارها الخطيرة على الشباب المسلم.

---

[٦٩] المرجع السابق، ص٥.

[٧٠] المرجع السابق، ص١٥.

[٧١] المرجع السابق، ص١٦.

ب. نقد مادية الحضارة الغربية:

على الرغم من التطورات الفكرية الكبيرة التي حدثت مع الحضارة الغربية، وبما فتحه الفكر من آفاقٍ جديدة للنظر والبحث في قضايا الدين والعلم، فإن إقبال يحذر من الانبهار بالصورة الظاهرية، ونسيان عمق هذه الحضارة غير الديني.

فمن خلال دراسته لها، وخبرته في معايشتها، وفقهه لجوهرها، يرى إقبال أنها حضارة مادية لا دينية، تصارع الحق، وتبعث وثنية جديدة. ولذلك يحذر المسلم بقوله: "ولكن إياك والحضارةَ اللادينية، التي هي صراع دائم مع أهل الحق؛ إنّ هذه الفتنة تجلِب فتناً، وتُعيد اللات والعزى إلى الحَرَمِ، إنّ القلب يعمى بتأثير سِحرها، وإن الروح تموت عطشاً في سرابها، إنها تقضي على لوعةِ القلب، بل تَنزع القلب من الجسم، إنها لص قد تمرَّن على اللصوصية، فيَغير نهاراً جهاراً، وإنها تدع الإنسان لا روح فيه ولا قيمة له."[٧٢]

بل إن الحضارة الغربية الحديثة لا تنفك تفتك بالإنسان وإنسانيته، وهي حضارة انتزعت من الإنسان نور الحق. يقول إقبال: "إنّ شعار الحضارة الحديث الفتك ببني آدم، الذي تقوم عليه تجارتُها، وتنفق سلعتها... إن العقل والحضارة والدين حُلْم من الأحلام ما لم يَعُد هذا النظام رأساً على عَقِب."[٧٣]

وهو يرى أن هذا البريق الذي تتمتع به الحضارة الغربية لا يؤثر فيه، يقول: "يا ساكني ديار الغرب، ليست أرض الله حانوتاً. إن الذي توهمتوه ذهباً خالصاً سترونه زائفاً، وإن حضارتكم ستبخع نفسها بخنجرها، إنّ العشّ الذي يبنى على غصنٍ دقيق لا يثبت."[٧٤]

وهي حضارة خلت من العفة والروح وجمال الذوق والوجدان، لهذا فإنها ثقافتها تفسد القلب والعقل معاً. يقول إقبال في ديوان (ضرب الكليم):[٧٥]

---

[٧٢] المرجع السابق، ص٨٢.

[٧٣] المرجع السابق، ص٧٠.

[٧٤] عزام، عبد الوهاب. **محمد إقبال سيرته وفلسفته وشعره**، مرجع سابق، ص٣٩.

[٧٥] إقبال، **الديوان السادس: ضرب الكليم**، مرجع سابق، ج٢، ص٦٣.

أرى تثقيـــــفَ إفـــــرنج فســـــادَ القلـــــب والنظـــــرِ
فـــــرُوح حضـــــارة لهـــــمُ خلَـــــتْ مـــــن عفَّـــــة الـــــوطرِ
إذا مـــــا الـــــروح جانَبَهـــــا جمـــــال الصـــــفو والطُّهـــــرِ
فـــــأين جمـــــالُ وِجـــــدانٍ ولُطْـــــف الـــــذوق والفِكْـــــرِ

ت. نقد التجديد بروح تغريبية:

وأتْبَع إقبال نقدَه للحضارة الغربية نقدَه لدعاة التغريب، وإن سمَّوا أنفسَهم دعـــاة التجديد؛ الذين يُنادون بتقليد الحضارة الغربية بخيرها وشرها، وحُلوها ومرها.

وأبدى إقبال يأسه من زعماء التجديد في الشرق، فقد حضروا في نادي الشـــرق بأكواب فارغة وبضاعة مزجاة في العلم والفكر، ورأى أنهم يعبثون بمحاولتهم التجديد بهذه الروح التغريبية التي لم تحافظ على القديم ولا هي جاءت بجديد نافع؛ إذ يقول:[٧٦]

يئست فـــلا أرجّـــي في أنـــاس لهـــم فـــنٌّ كفـــنِّ الســـامري
سُقاة في ربوع الشـــرق طـــافوا على النـــدماء بالقـــدح الخلـــيِّ
سحابٌ ما حوى برقـــاً قـــديماً وليس لديـــه مـــن بـــرق فـــتيِّ

ويسيء إقبال الظنَّ بدعاة التجديد، ويكشف سترهم بأن هذا التجديد ما هو إلا حيلة لتقليد الغرب، ويحمل بشدة على التغريب، ويعيب على من تبنى التغريب "الطابع العلماني الذي انتحلوه عن الغرب في السياسة والتعليم والاجتماع، وأكدّ أنهم ضـــلّوا سبيل الرشاد في فصلهم الدين عن الدولة، وإغلاقهم المعاهد الدينية، وإعلائهم العصبية القومية على الهوية الإسلامية، ودعوتهم لسفور المرأة ومساواتها بالرجل في الميراث."[٧٧]

ويدعو المسلم إلى الاعتزاز بشخصيَّته وكِيانه، ويرى أن الذي يأتي بالجديد في هذا العالم الذي يتجدَّد دائماً، هو نقطة الدائرة التي يطوف حولها الزمـــان، فـــلا تُعطِّـــل

[٧٦] المرجع السابق، ج٢، ص٦٢-٦٣.
[٧٧] نصّار، **الصراع الثقافي والحوار الحضاري في فلسفة محمد إقبال**، مرجع سابق، ص١٧.

شخصيتَك أيها المسلم بالتقليد الأعمى، واحتفظ بكرامتك؛ فإنما الجوهر الفَرْد، بل إنّ التجديد بمعنى التغريب لا يَليق بأمة لا تُفكِّر إلا في الدَّعة والترف، إنـــي أخـــاف أن تكون الدعوة إلى التجديد إنما هي حيلة وانتهاز لفرصة تقليد الغرب.

وفي ديوان (ضرب الكليم) يؤكِّد إقبال أن الحضارة التي تسير نحو الموت لا يمكن أن تحيي المسلمين الذين فُتِنوا بها، وعَميتْ عن رؤية الحقيقة، يقول:[٧٨]

كيف تُجْلـــى حقـــائقٌ لعيـــونٍ عَميـــتْ بالخضـــوعِ والتقليـــدِ
كيف يُحيي الفرنجُ عربًا وفُرسًا بفنـــونٍ تســـيرُ نحـــو اللحـــودِ

خاتمة:

إنّ الفكر الحضاري الإسلامي في سعيه إلى إنجاز تنظيري للأطروحة الحضارية التي يحتاجها العالم الإسلامي للخروج من التخلف وإنجاز النهضة، يلزم أن يقـــوم بخطـــوة منهجية ومعرفية أساسية، وهي أن يقدم جهداً نقدياً للفكر الغربي وللتراث الفكـــري الإسلامي؛ من أجل الخروج من المعيقات الذاتية والموضوعية للفكر الإسلامي.

وفي هذا السياق يؤكد محمد إقبال أن صحوتنا الحضارية تنطلق مـــن تقـــويم ذاتي لمدارس الفكر الإسلامي وتياراته عبر التاريخ، لندرك الإخفاقات الـــتي وقـــع فيهـــا والإنجازات التي حققها، كما يتطلب التمحيص بروح مستقلة لنتائج الفكر الأوروبي، والكشف عن المدى الذي تستطيع به النتائج، التي وصلت إليها أوروبا، أن تعيننـــا في إعادة النظر في فكرنا الإسلامي وعلى بنائه من جديد إذا لزم الأمر.

لذلك فإن محمد إقبال في كتابه (تجديد التفكير الديني في الإسلام) وفي بقية أعماله يقدم –من بين ما قدمه من أفكار ومعالجات– مقاربة نقدية للفكر الإسلامي والفكـــر الغربي، مما يعدّ تأسيساً لأهمية المدخل النقدي في عملية تجديد الفكر الإسلامي.

---

[٧٨] إقبال، **الديوان السادس: ضرب الكليم**، مرجع سابق، ج٢، ص٦٣.

خاتمة شعرية:

في الأسطر الأخيرة في نهاية كتاب (تجديد التفكير الديني) نجد أنه ختمه بقصـــيدة شعرية أراد منها مسك الختام، وجاء في مطلع القصيدة:[٧٩]

أنشد العون من شهود ثلاثة لتتحرى حقيقة مقامك

أولها عرفانك لذاتك

فانظر نفسك في نورك أنت

والثاني معرفة ذات أخرى

فانظر نفسك في نور ذات سواك

والثالث المعرفة الإلهية

فانظر نفسك في نور الله

فإذا كنت ثابت الروع في حضرة نوره

فاعتبر نفسك حياً باقياً مثله.

[٧٩] إقبال، **تجديد التفكير الديني في الإسلام**، مرجع سابق، ص٢٣٢.